٣٨ ـ المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي اودرد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثاني عشر — السحر والتنجيم والكيمياء

يدرس الكثيرون في مصر الكيمياء أيضاً . وهنالك فئة تنعم بمواهب يستطيعون أن يبلغوا بها شهرة أفضل مما يدركونه من هذه المهنة . ويواصل هؤلاء جهدهم العقيم حتى يبلغوا الكبر بالرغم مما يلاقون من سخرية حصفاء الرأي وذم الذين يغررون بهم عن غير قصد . ومع ذلك فقد يحصلون على معلومات كيميائية وافرة بدراسة هذا العلم الكاذب . والاهتمام بالكيمياء في حالة الانحطاط العلمي الموجودة الآن بمصر يبرهن على العقلية المصرية الرفيعة

وهناك أو كان هناك[1] مصري يدعى الشيخ اسماعيل أبو الروس من مدينة دسوق ، ذاع صيته في السحر الروحاني . ويتحدث المصريون حتى أكثرهم علماً ورزانة عن مهارته السحرية أحاديث لا تصدق . فيتحدث بعضهم مؤكداً زواجه بجنية ، وآخرون عن استخدامه جنياً يستشيره ويأمره في الباطن دون أن يستعمل طلسماً ما مثل مصباح علاء الدين . ويقال إن الشيخ كان يستخدم دائماً قوته الخارقة في أغراض طيبة أو بريئة ، وأن محمد علي ـ كما يقول البعض ـ كان يكرمه ويستشيره كثيراً . وقد أخبرني أحد أصدقائي المسلمين الأذكياء في القاهرة أنه زار أبا الروس في دسوق بصحبة الشيخ الأمير بن الشيخ الأمير الكبير شيخ المالكية ، فسأل صاحب صديقي مضيفهما أن يبين لهما بعض ما يدل على براعته في السحر ، فأجابه إلى طلبه . فقال الشيخ الأمير : قدم إلينا القهوة في فناجين أبي الموجودة بالقاهرة . وانتظرا قليلاً ثم أحضرت القهوة فنظر الشيخ الأمير إلى الفناجين وظروفها وصرح أنها طقم أبيه بلاشك . وبعد ذلك قدم الشراب في قلل أبيه . ثم كتب رسالة إلى أبيه وأعطاها لأبي الروس طالباً الحصول على الرد . فأخذها الساحر ووضعها وراء وسادة الديوان ، وبعد قليل رفع الوسادة وأراه أن رسالته اختفت وحلت محلها أخرى أخذها الشيخ الأمير وقرأها فوجد فيها رداً كاملاً على ما كتبه بخط صرح بأنه خط أبيه ، وأخباراً عن عائلته تبين له صحتها التامة بعيد عودته إلى القاهرة[1] . وقد وقع أثناء زيارتي الأخيرة لمصر حادث سحري عجيب تدخلت فيه الحكومة وكان محل حديث الناس وتعجبهم في العاصمة كلها . وسأروي هذه الواقعة تماماً كما قصها على الكثيرون في القاهرة دون أن أحذف منها المبالغات التي دبجوا بها حديثهم ، لا لأني جاهل مبلغ صحتها فحسب ، بل لأبين إلى أي حد عظيم يؤمن المصريون بالسحر

عُزل مصطفى الدجوي كبير الكتاب في مجلس القاضي من وظيفته ، وحل مكانه آخر يسمى مصطفى كان صيرفياً . فأرسل الأول إلى الباشا التماساً لإعادته ثانية ، إلا أنه مرض مرضاً شديداً قبل أن يصله رد . فاعتقد أن ذلك نتيجة سحر استخدمه مصطفى الصيرفي بكتابة تعويذة تسبب موته ، ولذلك أرسل إلى الباشا مرة أخرى يتهم الصيرفي بهذه الجريمة ، فأحضر المتهم أمام الباشا فاعترف بفعله ودل على الساحر الذي استخدمه . ولما قبض على الساحر لم يستطع إنكار التهمة ، فسجن حتى ينجو الدجوي أو يموت ، وأودع في حجرة صغيرة يتناوب حراستها حارسان — وهنا يبدأ القسم العجيب في القصة — عند ما جن الليل ، وبعد أن نام أحد الحارسين سمع الآخر صوت همهمة غريبة ، فنظر من خصاص باب الحجرة ، فرأى الساحر جالساً وسط الغرفة يدمدم ببعض كلمات لم يستطع فهمها ، وفي الحال انطفأت الشمعة التي كانت أمامه ، وظهر في الوقت نفسه أربع شمعات أخرى في كل ركن من أركان الغرفة ، ثم وقف الساحر تجاه أحد الحوائط وضربه بجبهته ثلاثاً ، وفي كل مرة كان الحائط ينفرج عن رجل يبدو أنه يخرج منها . ولم يلبث هؤلاء أن اختفوا بعد أن حدثهم الساحر قليلاً ، وكذلك اختفت الشمعات الأربع ، وعادت الشمعة الأولى وسط الغرفة مضيئة كما كانت قبلاً ، ورجع الساحر إلى جلسته ، وساد السكون ...

(١) علمت أنه توفي أثناء زيارتي الثانية لمصر

(١) وقد تحدثت في ترجمتي لألف ليلة وليلة الفصل الأول هامش ١٥ عن ساحر أكثر شهرة هو الشيخ أحمد سادومه ذاع صيته في مصر في النصف الثاني من القرن الأخير

وهكذا أبطلت التعويذة التي كانت معدة لقتل النجوى . ففي الصباح التالي شعر المريض بتحسن كبير بحيث توضأ وأقام صلاته . ومنذ ذلك الوقت تم شفاؤه سريعاً ، وأعيد إلى وظيفته السابقة ، ونفى الساحر من مصر . وقد نفى ساحر آخر بعد أيام قليلة لكتابته حجاباً جعل بنتاً مسلمة تصاب بحب قبطي حبًّا جامحاً .

وقد أثار فضولي في موضوع السحر بعيد قدومي إلى مصر حادث قصه عليّ مستر صولت Salt قنصلنا العام ؛ فقد سرقت من منزله أمتعة أتهم بسرقتها أحد خدمه . فاستدعى ساحراً مغربياً شهيراً ليحمل المذنب ، إذا كان أحدهم مذنباً ، إلى الاعتراف بذنبه . وحضر الساحر وقال إنه سيبين صورة اللص بحيث تبدو كاملة لأي صبي لم يبلغ سن المراهقة ؛ وطلب من رب الدار أن يحضر أي ولد يختاره ، وكان هناك عدة أولاد يعملون في حديقة مجاورة المنزل ، فدعى أحدهم لهذا الغرض . فرسم الساحر بالقلم على راحة يد الولد اليمنى شكلاً هندسياً صب في وسطه قليلاً من الحبر ؛ وطلب من الولد أن ينظر في الحبر بعزم ؛ ثم حرق بعض البخور وعدة قصاصات من الورق كتب عليها تعاويذ ؛ واستدعى في الوقت نفسه أشياء مختلفة تظهر في الحبر . وأعلن الولد أنه رأى هذه الأشياء وصورة المتهم أخيراً . فوصفه بقامته وهيئته وملبسه ، وقال إنه عرفه ، ونزل مباشرة إلى الحديقة وقبض على أحد العمال الذي اعترف أمام السيد بجرمه

وقد شوّقني الحديث السابق إلى مشاهدة حادث كهذا . ولكن لجهلي اسم الساحر ومكانه كنت عاجزاً عن الوصول إليه . على أنني علمت بعيد عودتي إلى انجلترا أن هذا الساحر اشتهر بين السياح المتأخرين في مصر ، وأنه يقيم في القاهرة ، وأنه يسمى الشيخ عبد القادر المغربي . وقد أحضره جاري عثمان مترجم القنصلية البريطانية ، بعيد قدومي الثاني إلى مصر . فضربت له موعداً ليثبت مهارته التي اشتهر بها . وحضر الساحر في الموعد المعين ، قبل الظهر بساعتين تقريباً ، ولكن كان يلوح عليه القلق وتطلع إلى السماء مراراً ، ثم لاحظ أن الجو غير موافق . وكان اليوم عابساً كثير الضباب عاصف الهواء . وكانت التجربة قد عملت مع ثلاثة صبيان على التوالي ، ولكنها لم تنجح تماماً مع أولهم وفشلت مع الآخرين . فقال الساحر إنه لا يستطيع أن يقوم اليوم بأكثر من ذلك ، وأنه سيحضر مساء يوم ثانٍ . وقد حافظ على وعده وقرر أن الوقت ملائم ؛ وأخذنا ندخن الشبك ونحتسي القهوة وهو يحدثني أحاديث مختلفة منتظرين جاري عثمان ليشاهد التجربة . والساحر جميل الشكل طويل القامة قوي البنية ، وجهه أقرب إلى البياض ، ولحيته شديدة السواد ، وث الثياب أخضر العمة كبيرها ، لانتسابه إلى النبي (ص) لطيف الحديث بلا تكلف . وقد أخبرني أنه يباشر أعماله العجيبة بواسطة الأرواح الطيبة ، ولكنه قال لآخرين أن سحره شيطاني

وطلب الساحر أولاً قلماً وحبراً وقطعة ورق ومقصاً ليعد تجربة مرآة الحبر السحرية التي تسمى ، مثل بعض الأعمال المشابهة الأخرى ، ضرب المندل . ثم قطع قصاصة ضيقة كتب عليها بعض أدعية علاوة على تعويذة أخرى يعتقد أن التجربة تتم بها . ولم يحاول أن يخفي ذلك . ولما طلبت نسخة منها قبل بسهولة وكتبها في الحال موضحاً لي في الوقت نفسه أنه يبلغ غايته بفعل الكلمتين الأوليين « طرشٌ » و « طريوشٌ » وهما اسما تابعيه الجنيين . وقد قارنت النسخة بالأصل فوجدتها مطابقة تماماً . وهذا نصها :

طرشٌ طريوشٌ انزلوا انزلوا ، احضروا إلى مذهب الأمير وجنوده ، إلى الأحمر الأمير وجنوده

احضروا يا خدام هذه الأسماء .

وهذا الكشف ، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد صحيح صح .

وبعد أن كتب هذه الكلمات ، فصل الأدعية عن التعويذة وقطع الأولى إلى ست جذاذات . ثم شرح لي أن القصد من التعويذة التي تتضمن جزءاً من الآية الحادية والعشرين من سورة الكهف ، هو فتح عين الصبي بطريقة غير عادية وجعل بصره حاداً يرى ما لا تراه

وكنت قد أعددت بإرشاد الساحر قليلاً من اللبان ، والكزبرة[1] ومجمرة بها جمر . فوضعت كل هذا في الغرفة مع الصبي الذي أعد لإجراء التجربة ، وكانوا قد دعوه من الشارع بناء على طلبي من بين بعض الصبيان حين عودتهم من أحد المصانع . وكان الصبي يبلغ من العمر ثماني سنوات أو تسعاً . وعندما سألت الساحر أن يبين لي من يستطيع النظر في مرآة الحبر السحرية

(١) وضيف الساحر على العموم إلى ذلك بخوراً جاوياً .

أجابني : الصبي دون البلوغ ، والبنت العذراء ، والجارية السوداء ، والمرأة الحامل . ووضع الساحر المجمرة أمامه ، ثم أجلس الصبي على كرسي وأمر خادمي أن يضع في المجمرة بعض لبان وكزبرة . ثم أمسك يد الصبي اليمنى ورسم على راحته مربعاً سحرياً نقلت نسخة منه هنا (شكل رقم ٥٣) ويتضمن هذا الشكل أرقاماً عربية[1] ثم صب في وسطه قليلاً من الحبر وطلب من الصبي أن ينظر فيه ويخبره إذا كان يمكنه رؤية وجهه معكوساً فيه . فأجاب الصبي إنه يرى وجهه جلياً . فقال الساحر وهو يمسك بيد الصبي طول الوقت[2] أن يظل محدّق النظر وألا يرفع رأسه

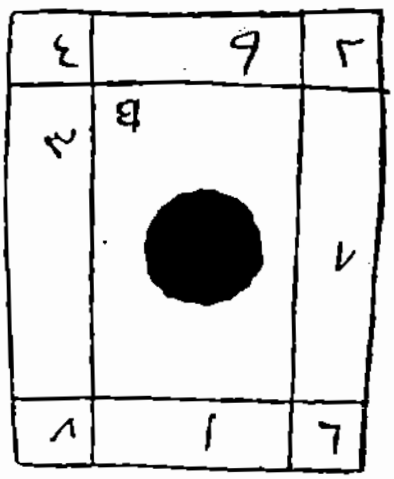

(شكل ٥٣) المربع السحري ومرآة الحبر

ثم أخذ الساحر إحدى قصاصات الورقة المكتوب عليها الأدعية وأسقطها في المجمرة على الجمر والبخور الذي كان قد ملأ الغرفة بدخانه . وبينما كان يفعل ذلك أخذ يدمدم دمدمة لم تنقطع طول العملية إلا حينما كان يوجه للصبي سؤالاً أو يعرفه ما يجب قوله . ووضع في مقدمة طاقية الصبي الورقة المكتوب فيها الآية القرآنية . وسأله عند ذلك إذا كان يرى شيئاً في الحبر ، فأجابه بالنفي ؛ ولكنه لم يلبث أن قال وهو يرتعش ويبدو أكثر خوفاً : « أرى رجلاً يكنس الأرض » فقال الساحر أخبرني بعد أن ينتهي من الكنس . فقال الصبي في الحال « لقد فعل » . فقطع الساحر إذ ذاك دمدمته مرة أخرى ليسأل الصبي إذا كان يعرف ما هو البيرق ؛ فلما رد بالإيجاب أمره أن يقول : « هات بيرقاً » . ففعل الصبي ذلك ولم يلبث أن قال : « لقد أحضروا بيرقاً » . فسأله الساحر «على أي لون هو ؟» . فأجاب الصبي أحمر . فقال له اطلب بيرقاً آخر . فلم يلبث أن قال إنه رأى بيرقاً آخر ، وأنه أسود اللون . وبالطريقة نفسها قال الساحر للصبي أن يطلب ثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً وسابعاً . فقال الصبي إنها أحضرت على التوالي وإنها أبيض وأخضر وأسود وأحمر وأزرق . فسأله الساحر حينئذ « كم بيرقاً أمامك الآن ؟ » فأجابه « سبعة » . ووضع الساحر أثناء ذلك ثاني القصاصات المكتوبة عليها الأدعية وثالثها في المجمرة . وإذ كان يضيف لباناً وكزبرة مراراً فقد أصبح الدخان يؤلم العين . وعند ما أخبره الصبي أن البيارق السبعة ظهرت له أمره أن يقول : « أحضر خيمة السلطان وانصبها » ففعل ذلك وقال بعد لحظة : « لقد أحضر بعض الرجال الخيمة وهي خيمة كبيرة خضراء وهم ينصبونها » ثم أضاف تواً : « لقد نصبوها » فقال الساحر : « الآن مر الجنود بالحضور وبنصب معسكرهم حول خيمة السلطان » ففعل الصبي كما أمره وقال على الفور : « أرى عدداً عظيماً من الجنود بخيمهم . لقد نصبوا خيمهم » . فقال له حينئذ أن يأمر الجنود بالاصطفاف . ولم يكد يأمرهم حتى قال إنهم اصطفوا . ووضع الساحر رابع القصاصات في الجمر وسريعاً ما ألحق بها الخامسة . وقال تواً : « قل للبعض أن يحضروا ثوراً » فأصدر الصبي الأمر وقال : « أرى ثوراً أحمر يسحبه رجال أربعة ويضربه ثلاثة » فقال له أن يأمرهم بذبحه وتقطيعه ووضع لحمه في أوعية وطهيه . ففعل كما أمره ووصف هذه العمليات كما تمت حسب الظاهر أمام عينه . فقال الساحر : « قل للجنود يأكلون » ففعل الولد وقال : « إنهم يأكلون . لقد أكلوا . وهم يغسلون أيديهم » فقال له الساحر إذ ذاك أن يدعو السلطان ففعل الولد وقال : « أرى السلطان ممتطياً جواداً أشهب وعلى رأسه قلنسوة مرتفعة حمراء . لقد ترجل عند خيمته وجلس داخلها » فقال الساحر : « مرهم بتقديم القهوة للسلطان وبتأليف المجلس » فأصدر الصبي هذه الأوامر وقال إنها نفذت . وكان الساحر قد وضع آخر القصاصات الست في الجمرة . ولم أميز من همهمته شيئاً غير ألفاظ الدعاء المكتوب التي رددها مراراً ما عدا مرتين أو ثلاثاً سمعته يقول : « إذا استعملوا أخبرهم . وكونوا أنتم صادقين » إلا أن أكثر ما ردده كان غير مسموع . ولما لم أسأله أن يعلني علمه فلا أدعي الجزم بأنني أعرف تماماً أدعيته

عبد طاهر نور

(١) يلاحظ أنه إذا جمعنا الأرقام عمودياً أو أفقياً أو بالورب نحصل على المجموع نفسه أي ١٥.

(٢) وهذا يذكرنا بالمغناطيسية الحيوانية.